الفصل الثاني

نشأة علم المقاصد

59/396

إن مقاصد الشريعة عند السلف لم تكن إلا أفكارا تحملها عقول العلماء والمجتهدين، يتعاطونها بصفة تلقائيّة فى اجتهاداتهم، وذلك يعود لتَشبعهم بالروح الدينيّة، وتمكنهم من معانى القرآن ، ومقاصده ، وكذلك تصرّفات الرسول صلى الله عليه وسلّم، وأصحابه رضى الله عنهم، وبقى الأمر هكذا إلى أن بدأت تلك الأفكار تظهر فى الكتابات الأصولية ضمن أبواب القياس وغيره واستمرت الأفكار فى النمو والتطوّر والتوسّع إلى أن أصبحت مقاصد الشريعة علما قائما بذاته.

ولبيان هذا الأمر سأقف عند أبرز المجتهدين والعلماء الذين كانت لهم إسهامات فعّالة فى علم المقاصد فطورته مادةً ومنهجا. وهؤلاء هم على الترتيب:

أولا : إمام الحرمين (ت ٤٧٨هـ) :

إنّ مجيئ إمام الحرمين[1] قد بدأت معه شذرات علم المقاصد فى الظهور، ضمن الكتابات الأصوليّة، وإن المتأمل فيما كتبه إمام الحرمين فى هذا الباب يتلمّس ذلك جليّا، فإنّنا نراه فى كلامه على المباح، يرسم إشارة للطرق

(١) هو ضياء الدين أبو المعالى ، الملقب بإمام الحرمين، ولد فى ثمانية عشر محرم سنة ٤١٩هـ، كان نظارا متكلّما فقيها ، من مؤلفاته «الأساليب فى الخلاف» و «الغياثى» و «البرهان فى أصول الفقه» و «الإرشاد إلى قواطع الأدلة فى أصول الاعتقاد» وغيرها كثير، توفى رحمه الله سنة ٤٧٨هـ.
الإسنوى : طبقات الشافعية ١/٩/٤ ومابعدها.

ثانيا : الغزالى (ت٥٠٥هـ):

إن ماقام به الغـزالى فى علم المقاصد، هو تكملة لما بدأه شـيخه فى هذا الميدان، فنجده قد حصر أصول المقاصد فى الثلاثة المعروفة الآن - الضروريات والحاجـيات والتحسـينات - بعدما جـعلها شيخـه فى خمسـة أقسام كمـا حدّد الكليـات الضـرورية وحصـرها فى خـمس كليـات - الدين والنفس، والعـقل والنسب والمال - وبيّن ماهيـتها ومثّل لها، وضـبط من خلالها مفـهوم المصلحة فى نظر الشـرع ،كمـا تحدّث عن هذا الأمـر فى باب «المناسبـة»[1]، فى كتـابه «شفاء الغليل»[2]، وبناء على هذا فإن الغزالى يـعدّ رائدا فى هذا العلم، ضمن الرعيل الأول الذين كتبوا فى علم المقاصد.

رغم هذا التطوّر الحاصل فى الكتابة فى «المقاصد الشرعيّة» إلا أنّها بقيت إلى ذلك الوقت أفكارا ومبادئ منثورة فى كـتب الأصول، وإن كانت قواعدها الأولى قد أسست على يد هؤلاء .

وبعد الإمام الغزالى لم يضف الأصـوليون شيئا ذا بال إلا تدليـلا وتمثيلا على مـا سبـق رسمـه ، وهو مـا نلاحظه عند الرّازى[3] وكل من تبـعـه من

---

(١) ويطلق عليـها . المناسب، وهو عـبارة عن وصف ظاهر منضـبط، يلزم من ترتيب الحكم على وفـقه حصول مايصلح أن يكون مقصودا من شرع ذلك الحكم .

الآمدى : الإحكام، ٣/ ٣٩٤.

(٢) شفاء الغليل ، ١٥٩ .

(٣) محـمد بن عـمر الحـسين القرشى البكـرى الطبرى الأصل الرازى المولد ولد سنة ٥٤٣هـ، كـان نظارا متكلما، أصـوليا فقيـها، له مؤلفات مشـهورة منها : «المحصـول فى أصول الفقه»، «شـرح الوجيز فى الفقه»، «أسماء الله الحسنى وغيرها توفى رحمه الله سنة ٦٠٦هـ.

الإسنوى: طبقات الشافعية ٢/ ٢٦٠، وانظر: : ابن العماد: شذرات الذهب ٥/ ٢١.

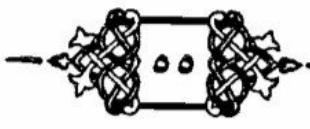

62/396

الأصوليين بعد ذلك، باستثناء، ما قام به الآمدى[1] من استعمال أصول المقاصد - الضرورات والحاجات والتحسينات - فى مسالك الترجيح بين الأقيسة وتبعه فى ذلك ابن الحاجب[2] وغيره ممن سلك مسلكهما.

ثالثا : ابن عبدالسلام (ت٦٦٠هـ):

إن مبحث المصالح والمفاسد الذى يمثّل عنصرا رئيسيا فى علم المقاصد بعدّ ابن عبد السلام[3] مؤسس معالمه الكبرى، وذلك من خلال كتابه الذى صنفه لهذا الغرض، وهو «قواعد الأحكام فى مصالح الأنام»، حيث تحدّث فيه عن حقيقة المصالح والمفاسد، وطرق معرفتها، وأقسامها، ومراتبها ووسائلها والآثار التى تترتّب عليها دنيويا وأخرويا، كما تعرّض للكيفيّة التّى يتمّ بها جلب المصالح ودرء المفاسد، والحّث عليها، وبحث موضوع الوسائل والمقاصد، كما تحدّث عن المشاق وأنواع التخفيف فى الشريعة، ورغم هذه القفزة النوعية من

---

(١) هو على ابن أبى على، سيف الدين أبو الحسين التغلبى الآمدى، ولد بآمد سنة ٥٥١هـ، واشتغل فى بداية الأمر بالمذهب الحنبلى ثم انتقل إلى المذهب الشافعى، من أشهر مؤلفاته «الإحكام فى أصول الأحكام»، «منتهى السول والأمل»، توفى رحمه الله سنة ٦٣١هـ .

الإسنوى: طبقات الشافعية ١/ ١٣٧ - وانظر: ابن العماد: شذرات الذهب ٥/ ١٤٤ .

(٢) هو أبو عمرو عثمان بن عمر بن أبى بكر الكردى، ولد سنة ٥٧٠هـ، أصولى نحوى، فقيه له تصانيف كثيرة منها : «مختصر المنتهى» ، نهاية السول والأمل»، «شرح الشافية فى الصرف»، «المختصر الفرعى»، توفى رحمه الله سنة ٦٤٦هـ .

ابن العماد : شذرات الذهب ٥/ ٣٤ - وانظر: محمد مخلوف: الشجرة ١٦٧ .

(٣) هو عبدالعزيز بن عبدالسلام الشافعى لقب بسلطان العلماء، كان عالما زاهدا ورعا آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر، من شيوخه: ابن عساكر والآمدى، من مؤلفاته: «قواعد الأحكام»، «شجرة المعارف والأحوال»، «الإمام فى أدلة الأحكام» توفى رحمه الله سنة ٦٦٠.

ابن هداية الله : طبقات الشافعية، ٢٢٢ .